

9

الجدور والأسس

إذا كان اعتناق الإسلام، الزواج وإنجاب طفل مغامرات قمت بها ضمن الإسلام، فإن تعلّمي وتقديري للقيم الإسلامية، الخضوع لله، الصبر، السعي لاكتساب المعرفة، كان شيئاً رائعاً وصعباً. كان تعلم الصبر الخضوع لمولاي الأصعب بعد سنوات من التمرد المبجل. كان تعلّم الصبر أمراً أسهل، وقد جلب معه السكينة والسيطرة على النفس. بدأ السعي لاكتساب المعرفة بالدين مع تلك الآيات الأولى من القرآن، كم تلعثمت في البداية، ثم سنة بعد أخرى، أصبحت أفضل مع ازدياد ثقتي بنفسي ومعرفتي بالعربية. وينتج عن المعرفة هدايا قيّمة من الإلهام، والفهم والاستبطان (بحث الدوافع). وحياة المسلم ليست محكومة فقط بالأعمال اليومية من حلال وحرام، شرعية وغير شرعية. لا يمكن معرفة النساء المسلمات من خلال حجابهن، وزواجهن وأولادهن فقط. إنهن في أفضل الحالات، مثل إخوتهن المسلمين، بشرٌ يحاولن السيطرة على رغباتهن، ألا يستسلمن لنفاد الصبر واليأس، ويسعين، مثل كل من يذهب في رحلة عظيمة، للبحث عن المعرفة. إنهن طالبات دين، يبحثن، يسألن، يحفظن ويتصرفن دائماً وفقاً لما تعلمنه. إنها هذه القيم، وليس الأفعال الدنيوية في الحياة اليومية، التي تمنحنا قوتنا، وشجاعتنا، ومرونتنا وأملنا. تعزّز هذه القيم كينونتنا وتجعلنا نشيث بطريقتنا في الحياة.

لقد تصدّيت للكثير من القضايا الخلافية التي تتناول مسائل تتعلق بالنساء المسلمات، إضافة إلى قضايا تشكّل جوهر حياتنا اليومية، طريقة لباسنا، زواجنا، أولادنا. كل هذه مثل أزهار وفاكهة على أغصان شجرة. لكن من المهم أن نتذكر أن الشجرة ليست أوراقاً فحسب، لها جذع وجذور عميقة. تعزّز هذه الجذور قيمنا وينبغي استكشافها؛ لنفهم حقاً معنى أن نعيش الإسلام.

الكفاح للخضوع

هناك بضع كلمات غير محبوبة في مجتمع اليوم مثل «إذعان» و«طاعة». يتناقض هذان المفهومان مع «حرية» ديمقراطياتنا الليبرالية المعاصرة. في الواقع، استعمال كلمات إنكليزية لوصف مفاهيم إسلامية معينة عمل ينطوي على مجازفة كبيرة. هناك الكثير من الكلمات التي نستعملها بانتظام في اللغة الإسلامية لها معاني سلبية أو ناقصة في السياق الغربي المعاصر، ومنها: «إذعان»، و«طاعة»، و«استقامة» و«تقوى». في الواقع، هذه الأيام، يبدو أن أي شيء له علاقة بالورع الديني يصبح موضع سخرية.

ليست هذه الحال بين المسلمين. لا نشارك في ازدياد المجتمع لهذه القيم وغيرها التي يحثّ عليها الإسلام. ربما يكون هذا أحد العوامل التي تجعل العالم الإسلامي يبدو غير مفهوم للغرب: في مجتمعاتنا، ما يزال الرب مهماً، ويشغل بين المسلمين الملتزمين مركز علاقاتنا.

«أحد الأسئلة التي طرحتها على نفسي: «هل أذعنت فعلاً؟» أعتقد أنه حتى هذا اليوم، أتساءل إن كنت قد فعلت حقاً. سأقول: إنني أذعنت، لكن الله يعرف تماماً ما في قلبي حقاً» عالية.

بالفعل، الإذعان جوهر إيماننا والطريقة التي نعيش بها حياتنا. الإذعان هو أولاً لله وحدوده. هذا يعني محبة ما يجب، الابتعاد عن كل ما يفضبه، الإيمان بكلمته والعيش وفقاً لشريعته. كل هذا يستلزم الإذعان له، لأنه وفقاً لما قالته لي سارة: «عندما تكتشفين الحقيقة، لن تكون دائماً ما ترغبين به». هناك أوقات يتعارض فيها ما نعرف أنه ينبغي القيام به مع ما نرغب بفعله، دفع الفواتير بدلاً من الذهاب في رحلات خلال عطلة نهاية الأسبوع، قراءة القرآن بدلاً من مشاهدة التلفاز، الحياة معركة مستمرة بين الواجب والرغبة. بالفعل، هذا مذكور في الحديث، وفيما الطريق إلى نيران جهنم محاطة بالملذات والإغراءات، فإن الطريق إلى الجنة محاطة بالصعاب، والأشياء التي تتطلب تضحية وكفاحاً. بالطبع، حالما تؤدين واجبك، تشعرين بالراحة الناتجة عن معرفة أنك قمت بالصواب. في لغة الإسلام، يدعى الكفاح لإنجاز واجبك بدلاً من إطلاق العنان لرغباتك جهاد النفس.

«بالنسبة لي [الإذعان] يعني التخلي عمّا أرغب فعله من أجل ما طلب مني الله القيام به». ليلي

سألت أخوات عمّا يعنيه «الإذعان» لهن، وبالنسبة لهن جميعاً، كان مقاومة رغباتهن جزءاً مركزياً فيه.

بكلمات سارة: «الإذعان هو اكتشاف السكينة مع الله، إيجاد السكينة في نفسك وأن تكوني صادقة مع الله. إنها حول تحية رغباتك جانباً؛ لأن كل ما يطلب منا القيام به لصالحنا بطريقة أو بأخرى. ربما لا نقدر ذلك، ونريد أن نعرف السبب، لكن كل ما يطلبه منا لصالحنا. عندما لا تطيعين

الله وتعرفين أن كلامه الحق، وأن أوامره حق، تضطربين. شخصياً، عندما لا أطيع الله، لا أكون في سكينة مع نفسي».

مجتمعنا مفتون بالعصيان. نعتبر أن التمرد ضد الوضع القائم، وتحدي السلطة وتخطي الحدود أمرٌ مثيرٌ للإعجاب. لهذا كيف يتوافق ذلك مع ثقافة تكون فيها السلطة التي نتكلم عنها هي مولى السماوات والأرض؟ عندما يضع الحدود لكل زمن ولكل البشر من الواضح، في هذا السياق، أنه لا يمكن الحفاظ على الصورة الساحرة للتمرد.

خلاقاً لوجهة النظر الغربية، الطاعة وليس التمرد التي يتم اعتبارها سمة شخصية جيدة في الإسلام. تم إعلاء شأن الطاعة في مجتمعات العالم طيلة آلاف السنين، وفي تلك المجتمعات يُتوقع من المواطنين طاعة أولي الأمر، كبار السن والتقيّد بالتقاليد والابتعاد عن المحرّمات المتنوعة. تغيير الكثير في العقود الأخيرة. على أي حال، في الإسلام، برغم أن الطاعة تحتل مكانة مرموقة، إلا أنها ليست مطلقة دون قيود: الطاعة مباحة فقط عندما يؤمر المرء بفعل الخير. لا طاعة في الاستبداد، الاضطهاد، الإثم، الخطيئة، الخداع أو الاعتداء. وتستند الطاعة في الإسلام على الدليل الإذعان والطاعة لا تعنيان أن نتبع من غير هدى أي شيخ يقول كلمتين بشأن الدين. ينبغي أن يبرهنوا على أقوالهم، وإذا كان ما يأتون به الحق، عندها و فقط عندها، لهم منا السمع والطاعة.

الصبر

في عدّة مواضع من القرآن، يأمر الله بالصبر. يمدح الأنبياء نوحاً، وإيوب، ويعقوب، ومحمداً ﷺ والصالحات، مريم وآسية (زوجة فرعون).

يتم إعلاء شأنهم جميعاً لثباتهم وصبرهم، خاصةً مع الصعاب التي ترافق طاعة الله ودعوة الناس لعبادته وطاعته.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾
[الأنعام: 34].

تتماشى ميزة الصبر مع الإذعان، لأن الإذعان ليس سهلاً دائماً بالطبع. جهاد النفس، المعركة الروحية مع رغبات المرء، لا تنتهي أبداً وتحتاج إلى يقظة مستمرة والكثير من الصبر. الصبر في عبادة الله، الصبر على الصعاب التي قد يجلبها ذلك، الصبر مع الناس الآخرين، الصبر مع وعد الله. سوف يساعدكن الصبر على وضع النقاب في قيظ الصيف، ويمنعكن من الاستسلام لدى مواجهة مشكلات زوجية، سيجعلكن قويات بما فيه الكفاية لإنهاء الصيام عندما تكون معدتكن تصرخ طلباً للطعام، ويمنعكن عن لعن القدر عندما لا تسير الأمور كما ترغبن.

لا غنى عن الصبر في حياة المسلم. إنه ملاذنا في أوقات الشدة، نحن صبورات فيما يخص أوضاعنا، ونعرف بأن الله سيبدل العسر يسرا، وأنه سوف يستجيب لتضرعاتنا وأنه رحيم بعباده. يحمينا الصبر من الشك واليأس وهو مفتاح سكينتنا.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

الحرية

كل هذا الكلام عن الإذعان، والطاعة والصبر يجعلنا نببدو مثل شهيدات يعانين منذ زمن طويل. هل هذه حقاً حياة المسلمة؟ أمل أن يكون

كل ما تقدّم في هذا الكتاب قد هدأ من مثل تلك المخاوف. لكن، مخافة أن يكون هناك فكرة بأن حياة المسلمة نوع من الحصار، نوع من الاضطهاد في حد ذاته، سألت أخوات ما إذا كن يشعرن بالحرية. ورفضت الإجابات السهلة اللاذعة نوعاً ما!

أولاً، والأكثر أهمية، حرّرتنا الإسلام من عدم معرفة هدف وجودنا. لقد أجاب عن الكثير من أسئلتنا: «لماذا أنا هنا؟»، «ما هدف حياتي؟»، «ما معنى الحياة؟». قال لي رجل مرة إنه لم يطرح على نفسه أبداً أيّاً من تلك الأسئلة، وأنه سعيد جداً بعيش الحياة يوماً إثر آخر، والتعامل مع كل يوم عندما يأتي. ربما كان يقول الحقيقة. لكن كل حضارة أنتجها الإنسان لنا سعت، بطريقتها الخاصة، إلى الإجابة عن تلك الأسئلة عبر الدين، والفلسفة والتأمل. البشر دون شك كائنات روحانية، ولدينا طموحات عالية وتوقعات كبيرة، ولطالما حاولنا الوصول إلى فهم نهائي عن سبب وجودنا هنا. نحن لسنا مثل الحيوانات التي تولد، تأكل، تتلاقى، تنتج ذرية وتموت على تلك الحالة. إرادتنا حرة وتتخذ خياراتنا بأنفسنا. وبعلمنا إسلامنا الخيار الذي يحبه الله، والذي سيقود إلى سعادتنا في هذه الدنيا وفي الآخرة.

قالت أم محمد، فتاة الحفلات سابقاً، الآتي: «لقد تحرّرت من المجهول. كنت أعود إلى المنزل من الحفلات وأجلس بجانب النافذة وأفكر: هذه ليست هي الحياة. لا يمكن أن تكون هذه ما خلقت لأجله. كنت أوّمن أن هناك رباً، وأوّمن أنه موجود هناك». كنت أقول: «أرجوك، دلّني على سبب وجودي هنا. لا يمكن أن أكون هنا فقط حتى أقفز للأعلى والأسفل في هذه الحفلة، أعود للمنزل وأنام، أذهب للتسوّق في صبيحة اليوم اللاحق وإلى

العمل يوم الإثنين. لا يمكن أن يكون هذا هديفي. لن أموت وأكتشف أن ذلك كان هديفي». لكنني أشعر الآن بحرية مطلقة، وأشعر بسعادة مع ديني. لقد فتح الله قلبي. لقد فهمت سبب وجودي وأنا سعيدة بذلك. أنا سعيدة لأن مولاي أراد مني عبادته. لماذا قد لا أرغب بعبادته؟ أشعر بحرية مطلقة؛ لأنني لست أمة لمجتمع ولست أمة لأفكار شخص ما عن الإسلام. أنا أمة لما طلبه مولاي مني.

حرّرتنا الإسلام أيضاً من السعي لتحقيق السعادة من خلال أشياء عابرة زائلة في هذا العالم. كما قالت لي كليز: «حرّرتنا الإسلام من أشياء معينة، مثل صورتك، تقديم نفسك للمجتمع كما تعتقدون أنه ينبغي عليك ذلك، تحقيق أهداف أكاديمية أو مهنية تعتقدون أن الناس يريدون منك تحقيقها. وما تزالين تريدين ذلك عندما تصبحين مسلمة، لكن لديك إطار عمل ومبادئ للعمل وفقها».

«من كانت الآخرة همّة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّة جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأتها من الدنيا إلا ما قُدّر له».

حديث رواه الترمذي

بخلاف الكثيرين، لا نعتقد أن المال يشتري السعادة. حتى إذا كنا نتمتع بالراحة المادية، لا ننظر إلى ذلك وحده بأنه يجلب لنا السعادة. لا تأتي السعادة من امتلاك ثروة أو شهرة كبيرة، إنها تأتي من القناعة بما منحنا الله لك. لسنا ضحايا غسيل الدماغ المادي الذي استهلك الكثيرين في العالم. بالنسبة لنا، الثروة وسيلة لتحقيق غاية، وليست غاية بحدّ

ذاتها. نعرف أنها من الله وأنها اختبار إضافة لكونها نعمة، سوف يتم سؤالنا حول كيف أنفقناها. هل أنفقنا مالنا بإسراف وتبذير، دون أدنى فكرة حول كيفية استعمالنا له لمساعدة الآخرين ومساعدة أنفسنا في الحياة الآخرة؟ يحررنا كل ذلك من القيم الاستهلاكية التي تسعى وسائل الإعلام لنشرها.

«قبل الإسلام، لم يكن لدي ما يكفيني أبداً، وكنت دائماً أجري، أجري وأجري. في الإسلام، هناك حرية: اكتشفت أن لدي ما يكفيني الآن، وأنا سعيدة، الحمد لله» كبير.

الأمر سهل جداً، عندما يصل المرء إلى مستوى معين من الراحة المادية، يبقى يتطلع قدماً، ويطمح إلى المستوى اللاحق. إذا لم يصل المرء إلى ذلك المستوى، يُصاب بالإحباط وعدم القناعة. العلاقات تأتي وتذهب، الأولاد يغادرون المنزل، الأعمال تتغير، المنازل تُباع والصحة تتدهور، كل الأشياء التي نعتمد عليها لتجعلنا سعداء، التي تمنح معنى لحياتنا، زائلة. بالنسبة للمسلمين، إنه الله وحده، الحي الباقي دائماً، في الخير والشر، والإذعان له ومحبته ستجعلنا نتجاوز تلك الأوقات.

بوصفنا مسلمين، لا نجادل في المعتقدات السابقة، الأديان الشائعة وطرق التفكير السائدة. نعرف ما نؤمن به، نعرف الصواب من الخطأ، ولا نشعر بحاجة للتأقلم مع الأفكار السائدة في وقت معين. ما لدينا ونتمسك به ثابت ومتين. إنها صخرة في بحر هائج، حيث «الحقائق» بقدر من يعملون على نشرها.

«كنت أعتقد أنني سعيدة، حتى تعرفت على الدين. ثم أدركت كم كنت غير سعيدة؛ لأنني كنت قلقة دائماً بشأن الظهور بطريقة معينة، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية ومحاولة مجاراة الآخرين، وإبقاء الناس سعداء، والارتقاء إلى مستوى أشياء كثيرة. لكن عندما تتعرفين على الدين، تدركين أنه ليس عليك فعل ذلك حتى تكوني محبوبة» صديقة.

بعد أن فكّرت أكثر في الموضوع، استرسلت كليرا قائلة: «كانت التأثيرات السلبية ظاهرة في شخصيتي، نفاذ الصبر، فقدان السيطرة على النفس، التشاؤم، مقارنة بدروس الصبر، السيطرة على النفس والتفاؤل التي كان الإسلام قد علّمني إياها. أعتقد أنك تستسلمين، وعندما تستسلمين، تشعرين بالحرية».

لأن الإسلام يضع مثل تلك المعايير العالية، بما يخص الإيمان، العبادة، الشخصية، الأخلاق والعلاقات مع الناس الآخرين، فقد منحنا ذلك شيئاً نبيلاً وشامخاً لنصبو إليه. لم نعد قانعات بأن نعيش حياة مبتذلة ضحلة، دون أن نعمل على تطوير أنفسنا أو تنقية أرواحنا. نحن نكافح باستمرار، ولا نتوقف البتة، ونجونا، بسبب هذا، من الكثير من المشكلات. لكل عمل نقوم به معنى، معنى يتجاوز الحياة اليومية، الدنيا.

«لقد حرّرتني الإسلام من الشفقة على الذات والهواجس النفسية. يمنحك الإسلام الكثير من التفاؤل، على ما أعتقد، حتى [في] أشياء بسيطة مثل النظر إلى أولئك الذين تكون حالتهم أسوأ منك، تقدير الأشياء التي تملكينها وتدركين إنعام الله عليك» كليرا.

لأننا نؤمن بكلام الله ونتق به، نحن متحررات من اليأس وفقدان الأمل. ليس هناك وقت أبداً نشعر فيه بعدم وجود أمل، وأن الأشياء لن تتغير أبداً والحياة لا تستحق العيش. أن تكوني مسلمة معناه أن تكوني واثقة، وألا تياسي أبداً من الله.

يحمي أسلوب الحياة الإسلامي أولئك الذين يعيشونه من العديد من المناحي المؤذية في مجتمع اليوم. نحن بأمان من الإدمان، الكحول، إساءة استعمال العقاقير، الأوبئة التي تنتقل عن طريق الجنس، الحمل غير المرغوب به، الإجهاض، التحرش الجنسي، من ضمن أشياء أخرى كثيرة.

قضية بعد أخرى، كانت الأخوات يكررن آراء بعضهن، وفي الجوهر، قلن جميعاً الشيء نفسه: نشعر بالحرية في إذعانتنا، وفي إسلامنا.

«اقرأ»

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾
 اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿﴾ [العلق: 1 - 3].

منذ نزلت هذه الآيات على النبي الأمي ﷺ، أصبح الإسلام دين الدراسة والتعليم. الصحابة تعلموا معتقدات الإسلام وأحكامه من النبي ﷺ نفسه. هم، بالمقابل، علموا ذلك إلى الجيل اللاحق - التابعين - الذين نقلوا المعرفة إلى الجيل الذي جاء بعدهم. وبعدهم، عبر التاريخ الإسلامي، أبقى الأئمة المعرفة الإسلامية تنبض بالحياة. قاموا بإنشاء مدن ومراكز للتعليم، من المدينة إلى بغداد، الأندلس إلى تمبكتو. أمعن الأئمة، رجالاً ونساءً، التفكير في النصوص القديمة واستنبطوا إجابات للتحديات والقضايا المعاصرة.

لكن مثل تلك الدراسة ليست حكراً على الأئمة. قال النبي ﷺ: «طلب العلم فرض عين على كل مسلم»، وبالفعل منذ بداية إسلامنا، أردنا أن نتعلم بأنفسنا. لهذا قرأنا، وطرحنا الأسئلة وناقشنا ما كنا قد تعلمناه. لم نكن مستعدات لقبول كلام أي شخص إن لم يقدم دليلاً عليه، القرآن، السنة أو كلام أحد الأئمة من الماضي، شيء يثبت أنه إسلامي حقاً وليس رأي شخص غير مطلع على الموضوع.

العلم والإيمان

برغم أنني اعتنقت الدين مع بعض المعرفة به، إلا أنني كنت ما أزال أتعلم بشأن الإسلام كل يوم. غالباً، كنت أعبر عن وجهات نظر متشدة للغاية والتي تتناقض تماماً مع الإسلام، وأناقش رأبي بحدة، حتى أقرأ شيئاً، مثل آية أو حديث، كان يثبت لي أن الله قال شيئاً مختلفاً. كان ذلك واحداً من أكبر اختبارات الإذعان: التخلي عن الأفكار التي لطالما اعتقناها حالما تدرकिन أنها تتناقض مع ما قاله الله ورسوله. ما لم يكن شيئاً أوافق عليه، غالباً ما كنت أقرأ وأتأمل في البراهين وأمعن التفكير في المناقشات حتى أتخلي فعلاً عن شيء ليس مسموحاً.

وهذا ما تفعله اكتساب المعرفة بشيء ما بك: تجعلك ترين الأشياء بطريقة مختلفة، وتتغير أولوياتك. يحدث ذلك طيلة الوقت. مثلاً، في وقت ما في حياتك، ربما يكون أدب ميلز ويون الراقي قد أثار إعجابك، لكن حالما تقرئين شكسبير، تعرفين شيئاً مختلفاً وتتغير وجهات نظرك في ميلز ويون، أمل ذلك!

الأمر نفسه في الدين. عندما تعرفين أهمية الصلاة وكيف تغسل كل السيئات كما يغسل جدول الماء النظيف الأوساخ، يتغير شعورك نحوها: تقضين وقتاً أطول بها، وتتوقعين أكثر منها.

عندما تعرفين عن حكمة الصيام وكيف يمحو كل سيئات السنة السابقة، يتغير شعورك نحوه: تصبحين أكثر تصميماً على القيام بذلك، وإصراراً على التحكم برغباتك.

عندما تعرفين عن الثواب الكبير الذي تكسبينه من قراءة القرآن، ستبذلين جهوداً أكبر: لن تستسلمي عندما تلف العربية لسانك أو عندما تتلعثمين، وستحاولين بجهد أكبر فقط.

«يوجد مقدار كبير من المعرفة هناك، ومن الواضح أنه مهما اكتسبت، ينبغي أن تحاولي التصرف وفقاً له. ذلك هو الشيء المخيف بشأن المعرفة: حالما تكتسبينها، ينبغي أن تتصرفي وفقاً لها. إنها مسؤولية كبيرة. إذا قرأت شيئاً أو تعلمت شيئاً أو أخبرك أحد بشيء ما، تشعرين بضغط ينجم عن ضرورة التصرف وفقاً لذلك» عالية.

تزيد المعرفة إيمانك أيضاً. تصبحين أكثر ثباتاً بمعتقداتك وبالطريق الذي كنت قد اخترته. عندما تقرئين عن وحي القرآن، أسباب النزول، طريقة جمعه، معجزاته، يقوي ذلك إيمانك وعزيمتك.

عندما تعرفين أسماء الله الحسنی وصفاته المثلثي - الرحمن، الرحيم، اللطيف، الخبير، الودود - لا تقنطين أبداً من رحمته وتصبحين أكثر إصراراً على فعل الخير.

هذا هو تأثير المعرفة على إيمان الشخص.

ويجعلك كل ذلك مسلمة أفضل، شخصاً أفضل، مثلاً لأولئك الذين حولك. بالفعل، ينبغي ألا نقتل أبداً من تأثيرات المعرفة على الفرد والمجتمع.

السعي لاكتساب المعرفة

بدأت تجاربي الخاصة في السعي لاكتساب المعرفة عندما كنت أنتقل مع سانديرا وحنًا في أرجاء لندن لحضور الخطب الإسلامية. بدأنا، عبر تلك الرحلات، نتألف مع التعبيرات الشائعة في سياق المعرفة الإسلامية، الفقه، العقيدة، الأخلاق، التجويد. لم يكن حضور الخطب غذاءً روحياً بالنسبة لنا فقط، وإنما كان نشاطاً اجتماعياً أيضاً. أتذكر ذهابي مع صديقاتي المعتادات إلى خطبة ألقاها متحدت أمريكي بارز في وسط لندن، كانت الإثارة كبيرة، رأينا أخوات أخريات نعرفهن، بعضهن يرتدين الحجاب للمرة الأولى، التقينا أخوات جديدات، أشخاصاً آخرين اعتنقوا الإسلام، واشتركنا جميعاً في تلك المناسبة الرائعة التي لم تكن ممتعة فقط وإنما مجدية أيضاً، كانت تبدو أفضل أنواع النشاطات في نهاية الأسبوع وأكثرها فائدة.

بعد أن تزوجت وانتقلت للسكن قرب مسجد ضمن مجموعة كبيرة ممن اعتنقوا الإسلام، وجدت نفسي في مجتمع يحتل فيه السعي لاكتساب المعرفة أولوية قصوى، هنا، كان التركيز منصباً على الصفوف الإسلامية التقليدية أكثر من المحاضرات الإسلامية التي يتم إقامتها بين الحين والآخر، ولهذا أصبح تعليمي أكثر تركيزاً. للمرة الأولى، حضرت دروساً منتظمة، سجلت ملاحظاتي بعناية وحفظت كل ما طلبه منا المعلم. واطبقت

أنا وزوجي على حضور تلك الصفوف، وكان أحدنا يلقي غالباً نظرة على ملاحظات الآخر، نتباحث ونختبر بعضنا.

كانت إحدى أفضل تجاربي عندما نظّم المسجد، مع بعض المراكز الأخرى، مؤتمراً في عطلة نهاية الأسبوع في بلدة شمال إنكلترا. لم يسبق أن أمضيت عطلة نهاية أسبوع مثل تلك.

كانوا قد استأجروا مباني جامعية وسكناً طلابياً؛ ليكون غرفاً لنا في نهاية الأسبوع. كانت حافلات محمّلة بالناس قد وصلت، من كل أنحاء المملكة المتحدة، وكان المكان كله مليئاً بالمسلمين الذين اجتمعوا لهدف نبيل: اكتساب المعرفة. كان هناك جو أسري دافئ بين الأخوات؛ وكان الجميع يبتسم لدى تبادل السلام، يتشاطرون ما لديهم ويتحدّثون إلى غرباء. كانت الفتيات المراهقات يجتمعن معاً، ويبدو عليهن الرشد في عباءاتهن ونصف الجلباب والأوشحة، ويتلقفن أخبار سنة مضت. كان الأولاد يمرحون في الأنحاء ويلعبون على المروج الخضراء الرائعة، مطمئنين إلى أن أمهاتهم لسن بعيدات عنهم.

في صبيحة يوم الأحد، تركت زوجي وطفلي نائمين في غرفتنا الصغيرة ومشيت عبر الأروقة في هدوء الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، آمنة مطمئنة، إلى قاعة الطعام حيث اجتمع عدد من الأخوات. هناك، ألتقت سيدة باكستانية كبيرة في السن على مسامعنا خطبة إسلامية، وكان كلامها مثيراً لأمس قلوبنا، ذرف الدموع من عيوننا ورسم الابتسامة على شفاهنا. بعد ذلك، تحدّثنا لبعض الوقت، تبادلنا الأفكار والمشاعر، ثم انطلقنا لأداء صلاة الضحى. وعندما تناولنا الإفطار معاً، حلّت علينا السكينة.

من الصعب وصف الشعور السائد بين الناس عندما يكون المرء منغمساً في تلقي المعرفة بوصفه فرداً في مجموعة. انتابني ذلك الشعور أكثر من أي وقت آخر عند إقامة أسبوع حلقات دراسية عن فروع المعرفة الإسلامية، التي علّم فيها طلبة متقدمون في المعرفة الإسلامية. كانت تلك إحدى المناسبات التي استطعنا فيها الدراسة بتركيز شديد والتي صهرتنا معاً. بالنسبة لي، كان الاستيقاظ في الصباح الباكر، السير بين المنشآت التي لا تزال هادئة إلى المدرسة حيث سيتم إقامة الحلقة الدراسية؛ الأيام التي قضيناها بجانب بعضنا، التقارب، التعلّم، الإصغاء، تسجيل الملاحظات؛ الأمسيات التي قضيناها في التنقيح، النقاش والحفظ، في المسجد وفي المنازل المنتشرة في أنحاء المدينة، وضعت نوراً خاصاً على وجوه الأخوات، وألقاً في عيونهن.

يقول أحد الأحاديث فيما معناه: إنه عند ذكر الله في تجمّع، تجتمع الملائكة وتتضرع بالدعاء للأشخاص الموجودين فيه. خلال ذلك الأسبوع الخاص، كان الأمر كما لو أننا نستطيع سماع خفق أجنحة الملائكة، سماع أصواتهم الخافتة ورؤية الضوء الذي يشع على كل شيء. شعرنا بسعادة غامرة، بالسكينة، وقد أثرت بنا تلك التجربة المهمة. كنا قد وجدنا ملاذاً من كل مشكلاتنا الدنيوية، لم يكن أحد في عجلة من أمره للذهاب إلى العمل، المدرسة أو تهدئة طفل يبكي: حتى إذا لم يكن ذلك ممكناً سوى أسبوع واحد فقط، لم نكن أمهات، زوجات أو بنات: كنا طالبات علم. بدا العالم الخارجي يتلاشى عندما كنا نسمع اللغة العربية من المعلمين، يتبعها إيقاعات كلام المترجمين، سمعنا صرير الأقلام على الورق تحتها. وكنا طيلة الوقت نفكر: «يا له من دين رائع... يا لروعة هذا الدين!». كنا نتعلم أشياء كثيرة كانت سابقاً غير واضحة، وانتابنا شعور رائع؛ لأننا نتلقى العلم من معلّمين بارزين.

لن أنسى جلوسى في المسجد عصر أحد الأيام بعد الصف، أراجع ما تعلمناه في ذلك اليوم مع مجموعة من الأخوات. سألنا بعضنا عن براهين أحكام دينية مختلفة، شروط تصنيف الأحاديث المتنوعة، قواعد التجويد، معتقدات الإسلام الجوهرية. وفيما كان كل ذلك يجري، رأيت بالمصادفة بعض الفتيات الصغيرات، الجديديات على الدين، اللواتي حضرن إلى المسجد للصلاة. كان النظر إلى وجوههن - الإعجاب، الدهشة والغبطة - انعكاساً لجمال ما لدينا. لا يقوم الكثير من المسلمين بدراسة الدين بعمق، ناهيك عن الوجود في مثل ذلك الجو الأسرى. كان إيماننا كبيراً، إخلاصنا قوياً، وشعرنا بأننا نستطيع التخلي عن الدنيا (الحياة الدنيوية) وكل ما فيها بسهولة وأن نجلس هناك في غرفة الصف تلك نتعلم عن الدين إلى الأبد.

قرأت بضعة أسطر من الشعر، كنت قد كتبتها مع نهاية الحلقة الدراسية، على الملأ في آخر الأسبوع وأعتقد أنها تلخص حقاً مشاعرنا نحو المعلمين، والعلم والدين في ذلك الوقت:

أخواتكم في هذا الدين

يفمرهن اليقين

بأن السعي لاكتساب المعرفة غذاء

للمسلمات والمسلمين

كم نحن ممتنات

لإنعام الله

لأننا شاركنا في هذا الشرف

وتشبهتنا بديننا

بأيدي ثابتة

قلوب ثابتة،

تكره أخواتكم أن يفترقن

عن المعلمين العزیزین

الذين أحببناهم كثيراً.

لم تجف الدموع،

ما تزال القلوب حزينة،

لأن أئمتنا سيتركوننا،

لرحمة هذه الأرض.

نكره العودة إلى الطرق القديمة،

تلك الدنيا الباهتة الفانية،

بعد هذا الغذاء المنتقى،

الذي كان قد أنار قلوبنا.

لقد تارت شهيتنا،

لم يتم إرواء ظمئنا،

عسى الله أن يجعله ظمأً يحنّنا،

على السعي لاكتساب المعرفة حتى النهاية.

لهذا الآن، نرمي عليكم السلام،
 إن شاء الله، لن تكون هذه المرة الأخيرة،
 عسى الله أن يوحد قلوبنا مرة أخرى،
 بعد انقضاء هذا الوقت.
 جزاكم الله خيراً،
 من أخواتكم في الإسلام،
 عسى أن نكدح سوية، نقيم الدين،
 نتذوق حلاوة الإيمان.

يجعلك السعي لامتلاك المعرفة تتغيرين بوصفك شخصاً. سلوكك
 يختلف، مظهرك يتبدل وأفعالك تتغير. إنه شعور مماثل للصيام في
 رمضان، تنغمسين في عبادة دون انقطاع ويبدو الأمر رائعاً. بالنسبة لشخص
 لم يسبق له أن اختبر ذلك الشعور المذهل الذي ينتج عن الدراسة الروحية
 أو الدينية، لا بد أن سماع ذلك بعبارات النشوة التي ترافق الممنوعات
 يبدو غريباً. لكن ذلك هو الأمر في أفضل الحالات: إنه غذاء للعقل والروح
 وتأثيراته طويلة الأمد، وتتغلغل في كل ثنايا حياتك. أتذكر كيف أنني
 وزوجي، المتزوجين حديثاً، كنا نذوق الأمرين في المواصلات العامة، نساfer
 خارج لندن، مدة ساعتين على الأقل، لحضور خطبة إسلامية في منزل
 إحدى العائلات. ثم كنا نعود عبر المدينة، متعبين، في آخر الليل، ضمن
 قلة من الركاب على متن القطار. فعلنا كل ذلك من أجل الثواب، والإثارة،
 ومتعة التعلم بشأن الدين والوجود مع أشخاص آخرين، بأدابهم الرفيعة
 وابتساماتهم اللطيفة، كانوا هناك ليتعلموا عن الله أيضاً.

العلم والحرية

هناك نظريات عديدة بشأن أسباب الانحرافات العامة الموجودة في مجتمعات إسلامية معينة في العالم. يعزو بعضهم ذلك إلى فشل تلك المجتمعات في التحديث، ترسيخ الديمقراطية والحقايق بركب الغرب. يقول آخرون: إن اللوم يقع على الإسلام.

عبر العالم، تتعرض المجتمعات الإسلامية لاختبارات مختلفة، معدلات بطالة مرتفعة، الاستياء بين الشباب، مواقف تمييزية ضد المرأة، إضافة إلى اضطرابات سياسية ودينية. يتطلب الأمر كتاباً آخر لدراسة أسباب كل تلك المشكلات من وجهة نظر إسلامية، وهو شيء لست مؤهلة للقيام به، لكن العامل الوحيد السائد بين كل تلك المجتمعات تقريباً هو الافتقار العام للمعرفة الإسلامية. لقد ولّت الأيام التي كان المسلمون يدرسون بها دينهم بجدية ويضعون ما يتعلمونه موضع التطبيق. وإذا كان يحق للمرء أن يتساءل: لماذا كل هذه الضجة حول امتلاك المسلمين للمعرفة بدينهم؟ ينبغي أن ننظر فقط إلى نتائج افتقار المعرفة والتفاهم: اضطراب سياسي، إرهاب، مادية، جشع، فساد، عنف أهلي، ضمن كوارث اجتماعية أخرى.

إن للعودة إلى المعرفة الإسلامية الحقيقية ووضعها موضع التطبيق الكثير من الفوائد، على المستويين الشخصي والاجتماعي. في أفضل الحالات، عندما يبدأ المرء التعلّم بشأن الإسلام ويمارس شعائره، تتغير شخصيته، يصبح أكثر مخافة للرب، يعرف أن الله يستطيع رؤية وسماع كل ما يفعله، وستتم كتابة ذلك وسؤاله عنه كله؛ يصبح أكثر حذراً بشأن ما يقوله وكيف يقوله، يسيطر على أعصابه ويتعد عن الكذب والغيبة،

يصبح حريصاً في طريقة معاملته للآخرين، ويعرف أن لهم حقوقاً عليه؛ ويكون حذراً في تعاملاته التجارية، ويبتعد عن الغش، الخداع والأمور الحرام، مثل الربا (الفائدة)، يتحمل المزيد من المسؤولية الاجتماعية، ويسعى للتخفيف من معاناة الآخرين، ويجود بالصدقات ويساعد الآخرين حيثما استطاع. وحتى عندما تظهر المشكلات ويتم ارتكاب الأخطاء، يعود إلى الله، يسعى لنيل مغفرته، وإلى القرآن والسنة ليحلها وفقاً لشريعة الله. في الجوهر، يبدأ تجسيد الخصائص النبيلة في الإسلام: تقوى الله، التواضع، الكرم، الصدق، اللطف، الرحمة، ضمن أشياء أخرى. إن مجتمعاً يتكون من مثل هؤلاء الأشخاص سيكون رائعاً بالتأكيد.

ومجتمع قائم على العبادة المخلصة لله سيحظى بالكثير من الإنعام؛ لأن كل شيء رهن إشارته، سواء كانت أمطار الخير، الحكم الصالح، العائلات المسالمة أو سعادة الأفراد.

أفترض أن ما أقوله: إن المسلمين يمتلكون الأدوات لإحياء دورهم من ضمن الدين، لكنهم لن يستطيعوا استعمال تلك الأدوات إلا من خلال العلم، دراسة الدين بإخلاص، وتطبيق كل ما يتعلمونه.

ربما يجد بعضهم في ذلك تبسيطاً مفرطاً للمشكلات التي تواجهنا، لكن ينبغي علينا، بوصفنا مسلمين، أن نؤمن بوعده الله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

لا يرتاح جميع الناس لفكرة مجتمع تتم إدارته وفقاً لمبادئ علمانية، مجتمع قائم على الرأسمالية والقيم المادية، مجتمع دون حدود أخلاقية، مجتمع يكون فيه الجيران غرباء، مجتمع حيث النساء سلع جنسية على كل لوحة إعلانية وغلاف مجلة، مجتمع لا يُذكر فيه الله. مهما كان عدد الراغبين بتصديق ذلك، إلا أن تلك بالنسبة للكثيرين ليست قمة الثقافة البشرية والمجتمع. بالفعل، يتطلع المسلمون بشكل مختلف قُدماً إلى الأمام، لأن أسسهم وجذورهم مختلفة تماماً. أعتقد، كما علم الإسلام، أن اكتساب المعرفة بالدين إحدى الخطوات الأولى نحو بناء مجتمعات تكون مثلاً مشرقاً لكل البشر، مسلمين وغير مسلمين على حدٍ سواء. هناك من سيهزأ بهذا كله، ويدّعي أن عصر الإسلام، مثل عصري الإغريق والرومان من قبله، قد انتهى، وأن حقبة سيادة «الدين» الديمقراطية الليبرالية قد ولّت إلى الأبد. إلى هؤلاء الناس، وخاصةً المسلمين بينهم، أطلب منهم أن يسألوا أنفسهم الآتي: هل خلقهم الله؟ هل نزل القرآن ليكون حقاً إماماً لكل البشر، في كل العصور؟ هل أدى نبيّه ﷺ الأمانة كما ينبغي؟ إذا كانت الإجابات لا، فسيكونون عندها أحراراً في قول ما يحلو لهم، ليس للإسلام عليهم من شيء. لكن إذا أجابوا بنعم، ينبغي أن يستعدوا عندها لأن ينظروا إلى العالم برؤية جديدة، بالطريقة التي يراه الله بها، كما أوضح في كتابه ومن خلال رسوله. بالنسبة لنا نحن المسلمين، الوحي ليس بعض الخيالات العابرة، إنه حقيقة لا لبس فيها.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: 124 - 126].

أعتقد أن الافتقار إلى المعرفة الإسلامية الصحيحة في مجتمعاتنا تبدو واضحة للغاية بالنسبة لنا، نحن النساء المسلمات. نحن من تكون معاناتنا أكبر عندما تكون مستويات الدين العامة منخفضة، عندما لا نعرف حقوقنا وعندما لا يعرفها الرجال أيضاً أو لا يخافون الله بما فيه الكفاية لمنعنا لنا. في مجتمعات مثل هذه لا يحق لنا أن نرث، أن نحصل على الطلاق، ويتم منعنا عن المسجد. نحن من يتعرض للاضطهاد نتيجة الثقافات الأبوية والمواقف المتشددة. نحن من يتم تقطيعنا، تقسيمنا وقتلنا، وفقاً للعادات السائدة. ليس الإسلام من يضطهد النساء المسلمات، وإنما افتقار المعرفة أو تطبيق تلك المعرفة التي تضطهد.

في البداية، كان الإسلام قوة تحرير للمجتمع ككل وللنساء بشكل خاص. قبل الإسلام، لم يكن للنساء في شبه الجزيرة العربية، مثل معظم أصقاع العالم، أي حقوق، يمكن تزويجهن برغم إرادتهن، ليس لديهن حقوق بالملكية أو الميراث، وتتم معاملتهن مثل المملكات المنقولة، والأسوأ من كل ذلك، كان إنجاب بنت عاراً كبيراً جداً لدرجة أنه كان شائعاً وأد البنات، وهن على قيد الحياة. منح الإسلام النساء الحماية، حق الحياة بدلاً من الموت، بأن يكون لهن هويتهن القانونية والاجتماعية الخاصة بهن، الحق في التعليم، التجارة والموافقة على زواجهن، وحصولهن على الرضا الجنسي، وضع شروط في عقود زواجهن، أن يحصلن على المهور بأنفسهن، إنهاء حالات الزواج تلك إذا دعت الحاجة لذلك، الذهاب إلى المسجد ودراسة الدين. في ذلك الوقت، كانت النساء يسألن النبي ﷺ، ويتلقين العلم على يديه، وهاجرن معه، وقاتلن في الحروب إلى جانبه ومتن في سبيل الإسلام. كانت هناك خديجة بنت خويلد، سيدة الأعمال، أول

من آمن برسالة النبي ﷺ والمؤيدة المخلصة له؛ وكانت هناك سُميَّة، أول شهيدة في الإسلام، التي رفضت الرجوع عن إيمانها عندما فعل الرجال من حولها ذلك، أسماء بنت أبي بكر التي كانت تنقل الطعام والأخبار، وحيدة تحت جناح الظلام، إلى النبي ﷺ وأبيها في محبتهما، نسيبة بنت كعب التي قتلت بشجاعة كبيرة خلال غزوة أُحد، وكثيرات غيرهن. ظهرت أولى المعلّّّات في الإسلام خلال ذلك الوقت، نساء مثل عائشة بنت أبي بكر التي لم تعلّم النساء كما هو متوقع فحسب، وإنما علّمت الرجال أيضاً. كانت الأولى في صف طويل من المعلّّات اللواتي تفوقن في دراستهن للدين، نقل الحديث، حفظ مجلدات بأكملها، وقد علّمن آلاف الطلاب، قمن بإملاء كتب وأنتجن بعضاً من أشهر المعلمين في التاريخ الإسلامي، بمن فيهم الإمام مالك والبخاري، جامع الحديث الشهير. كانت لكل هذه النساء الرائدات، وأخريات مثلهن، شخصيات مختلفة، كانت بعضهن حكيمات، بعضهن متهورات، بعضهن مثقفات، بعضهن شجاعات، بعضهن جريئات وبعضهن لينات العريكة. لكن الله أسبغ عليهن من فضله وتبوأن مراكز مرموقة ضمن مجتمعاتهن في تاريخ الإسلام وبين المسلمين، كل هذا في وقت كانت فيه النساء في الغرب وأماكن أخرى ما زلن يكافحن؛ ليتم الاعتراف بهن مخلوقات لها أرواح وفصلهن قانونياً عن أزواجهن.

وعندها، في مكان ما على الطريق، بدأ هذا التقليد النبيل يذوي حتى أصبح المرء، اليوم، لا يستطيع عدّ الأئمة الإناث على أصابع يد واحدة. وفيما تراجع مستوى المعرفة العام، كذلك تراجع معرفة النساء ومكانتهن وموقعهن في المجتمع. وعندما لا تفهم النساء دينهن، لا يعرفن حقوقهن؛ وعندما لا يعرفن حقوقهن، لا يمكنهن المطالبة بها. وهكذا نشأت أجيال

من البنات يشاهدن أمهاتهن يعشن بهذه الطريقة وقبلنها، وشاهد أجيال من الأبناء آباءهم يتصرفون على تلك الحال وقبلوا بها، حتى أصبح كل ما يمكن أن يدعيه مجتمعهم بأن اسمه «مسلم»، برغم أن مجتمعهم أبعد ما يكون عما جاء به النبي ﷺ. هذه مأساة الجهل الكبيرة، إنها تُقرز ثقافة الجهل، ثقافة تخنق في النهاية الجمال الذي قد يكون لدى الناس.

لهذا أعتقد أنه فقط عندما تعود المجتمعات الإسلامية إلى معرفة دينها، ستبدأ تطبيق الإسلام كما ينبغي لها وتحصد حقاً فوائد ذلك، في هذه الحياة والآخرة.

هذه المعرفة الثمينة

قد تم وضعها

بعناية قلوبنا،

تضيء مثل نجمة في منتصف الليل،

شمعة في الظلام.

عسى أن تتدفق عبر قلوبنا

وأوصالنا

الكلام على لساننا

عسى أن تنعكس على المحيطين بنا،

أزواجنا

والشباب.

عسى الله أن يجعل الضوء اللامع يشرق،
 يشرق على عائلاتنا،
 يضيء قلوبنا ومنازلنا،
 ومجتمعاتنا.

إذا كانت مجتمعاتنا قوية
 وكافحت لتتعرف على الله،
 فستظهر أعمال الخير،
 وتتمو، إن شاء الله.

وعندما تتمو، سينتج عنها
 أطفال سيكدهون
 لنيل العلم، تطبيق السُّنة،
 لعمل الخير في حياتهم.

يا الله، اجعل الخير يضيء مشرقاً،
 وغير الأشياء التي نفعها،
 غير أرواحنا،
 عائلاتنا
 وغير هذه الأمة أيضاً.